الفصل الثالث

خمس مرات يوميًا كما هو مفروض

ربما يمكن القول إنني كنت قريباً من الإسلام بأفكاري قبل أن أشهر إسلامي في عام ١٩٨٠م، بنطق الشهادتين متطهراً كما ينبغي، وإن لم أكن مهتماً حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية. لقد كنت مسلماً من الناحية الفكرية أو الذهنية، ولكني لم أكن كذلك بعد من الناحية العملية. وهذا على وجه اليقين ما يتحتم أن يتغير الآن جذرياً. فلا ينبغي أن أكون مسلماً في تفكيري فقط، وإنما لابد أن أصير مسلماً أيضاً في سلوكي.

إذا كان الدين يعني رباطاً يربط الإنسان بربه، وإذا كان الإسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كان أهم واجباتي، بوصفي مسلماً، حديث عهد بالإسلام، في الخمسينيات من العمر، أن أتعلم صلاة الإسلام. وليس من الضروري أن يكون المرء خبيراً في الحاسب الآلي ليدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟

من المؤكد، على أي حال، أنه لا شيء يعرض إسلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه. ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحوري في حياة كل من يعي ويدرك معنى ما يقوله، عندما يقول إنه يؤمن بالله. وبناء على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من وجهة نظري. فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها، دون أن تكون لديه رغبة في التحدث إليها هاتفياً أو في الكتابة إليها، ودون أن يلقي نظرة واحدة على صورتها طول اليوم، ليس محباً لها في حقيقة الأمر. وهذا ما ينطبق تماماً على الصلاة. فمن يعي ويدرك حقاً المعنى الحقيقي لوجود الله، ستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه إلى الله كثيراً. وبذلك

فقط، يصير ما يردده المسلم كثيراً وهو يقرأ سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقة واقعة.

كنت حتى تلك اللحظة أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة. ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية. ومن ثم، كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص. وقبل أن أمعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة، طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة، والركوع، والسجود، والجلوس على الأرض مستنداً على القدم اليسرى، ورفع الذراعين، واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهراً، ومتى يقرأ سراً مع تحريك الشفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفاً صحيحاً خلف الإمام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخراً إلى المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد. إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم بوصفه مسلماً دون أن يكون كذلك.

* * *

تبدأ الصلاة الإسلامية، وإن بدا ذلك أمراً غريباً، من الحمام أو عند مصدر المياه في الفناء الأمامي للمسجد بالوضوء. وينبغي تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله، وكيف يغسل المرء اليدين، وكيف يمسح الرأس، وكيف يتأكد من غسل الكعبين.. كل شيء وُضع وحُدد على نحو دقيق تماماً[1].

حينما ينوي المرء الصلاة ويرفع اليدين إلى الرأس مكبراً مفتتحاً الصلاة، فإنه ينفصل تماماً عن مشاغل حياته اليومية، وهذا يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له.

(١) هذا الوضوء لا يفي بالغرض في حالتي المعاشرة الزوجية والحيض عند المرأة، ولهذا يلزم الغسل.

لا يمثل الوضوء مشكلة في البلدان الحارة، حيث تؤدي الحرارة المرتفعة إلى سرعة الجفاف. وفي حالة عدم توافر الماء، فإنه يكفي تنظيف اليدين بالرمل على سبيل الرمز (التيمم). ولقد تعرضت لمثل هذا الموقف، حينما غاصت السيارة التي يقودها سائقنا الخبير بالصحاري في السابع من شهر ديسمبر عام ١٩٩٣، في أثناء رحلة في منطقة ليوا الغنية بالنفط في الإمارات العربية المتحدة، حيث تبدو الرمال صالحة تمامًا للتيمم.

أما في مناطقنا الباردة، فليس من السهل حقاً، في حالة عدم وجود مناشف، أن يضطر المرء إلى ارتداء جواربه وقدماه مبتلتان.

* * *

تبين لي أن تعلم كيفية أداء الصلاة أيسر كثيراً مما كنت أتوقع، لأن الصلاة تتكون من وحدات ثابتة تسمى «ركعة». فالركعات هي وحدات الصلاة.

وينبغي أن يتعلم المرء أيضاً عدد الركعات في كل من الصلوات الخمس الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وأن يعرف مواقيتها، وما ينبغي على المسافر أن يراعيه من أحكام الصلاة.

تعلمت أخيراً كيفية الوقوف في صلاة الجماعة، حيث ينبغي أن يصطف المصلون في صف مستقيم تتلاصق فيه الأقدام وتُسدُّ الفرج. وهذا التلاصق يرمز بالنسبة لي أكثر من مجرد ضم صفوف. إنه يرمز إلى التضامن على نحو يؤثر فيَّ مجدداً كل مرة. ويتجدد هذا التضامن في نهاية كل صلاة مع تحية «السلام عليكم» التي ينطقها المُصَلِّي وهو يلتفت يميناً ثم يساراً، وبعد ذلك يمسح وجهه بكلتا يديه إعلاناً عن انتهاء الصلاة، وبعدها يمد يديه إلى جاره في الصلاة مصافحاً ومتمنياً أن يتقبل الله صلاته «تقبل الله صلاتك».

روى لي عبد الوهاب عبادة، السكرتير العام السابق لوزارة الخارجية الجزائرية، أنه غير هذه التحية مرة عندما كان طفلاً. فلقد بدا له أنه من الأقرب إلى المنطق أن يقول: «السلام عليك». وكانت نتيجة ذلك أنه تلقى على وجهه صفعة من والده الذي علمه أن المسلم يقول دائماً: «السلام عليكم» لأن تحيته تشمل جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية. تشتمل الجنادب.

من الأهمية بمكان، أن يعرف كيف يحدد موضع صلاته، بحيث يضع نظارته وحافظة أوراقه على مسافة نحو ٩٠ سنتيمتراً أمامه. فلن ينتهك أحد موضع صلاة أحد آخر، ولن يمر أحد من أمام أحد المصلين مباشرة. وإنني لأتذكر أنني هممت بمغادرة مسجد الرسول ﷺ في المدينة، بعد أن انتهيت من الصلاة، يوم ٢٦ من ديسمبر عام ١٩٨٢. وعندما بلغت الباب الرئيسي، كانت حركة السير بطيئة. وكان السبب أن أحد القادمين إلى الصلاة متأخر، لحق بها فور وصوله إلى الباب، وما يزال يكمل صلاته على الدرج في هدوء تام، في حين انقسمت جموع المصلين المنصرفين من المسجد حوله كما تنقسم حول صخرة. ولم يجرؤ أحد على أن يزعجه، أو يشوش عليه في صلاته، أو أن يقتحم موضع صلاته. أما ما هو أشد غرابة وإثارة للدهشة، فذلك الذي رأيته في أثناء الطواف حول الكعبة في عام ١٩٩٢. فلقد راحت امرأة ضعيفة البنية تؤدي الصلاة دون اكتراث، في قلب الزحام على مسافة بضعة أمتار من الكعبة، محاطة بأربعة رجال أشداء يصنعون لها سياجاً بسواعدهم. ومرة أخرى يتكرر رد الفعل الهادئ نفسه من جانب الناس. فلا لوم، ولا تأنيب، ولا كلمة غاضبة، وإنما احترام للصلاة.

ربما يكون من العسير أو حتى من المستحيل، بسبب هذه القواعد الصارمة، أن يغادر المسجد أحد من المصلين في الصفوف الأمامية قبل أن يغادره الجميع. ولقد

اضطرت في عام ١٩٩٣ إلى أن أترك مضيفي في أبو ظبي ينتظرني، لأنني لم أجد وسيلة لمغادرة المسجد تتفق مع القواعد. فلكي أغادر المسجد عبر طريق جانبي، كان لابد من أن أمر أفقياً من أمام المصلين، وهذا هو «الحرام» بعينه.

* * *

أحب كثيراً أن أؤدي الصلاة بمفردي، حتى أستطيع أن أتحكم في سرعة إيقاعها الذي يتسم عادة بالسرعة إلى حدٍّ ما عند الصلاة في المسجد، بسبب مراعاة ظروف المرضى ومن يكونون على عجلة من أمرهم. ومع ذلك، فإن لصلاة الجماعة فضلاً على الصلاة منفرداً.

بعيداً عن المساجد التي لها إمام محدد، يؤم الصلاة فيها، ينبغي قبل كل صلاة جماعة أن يختار في لحظتها من يؤمها. ويتمتع المضيف بالحق في أن يؤم الصلاة. ومع ذلك، فإنني أحب بشدة أن أفوض في إمامتها واحداً من ضيوفي (مثل السفير السعودي، أو رئيس حزب الاستقلال المحامي محمد بوستة، عندما نلتقي معاً على مائدة الإفطار في رمضان بمقر إقامتي في الرباط).

وذات مرة، اقتضت ظروف غريبة أن أصلي أنا نفسي إماماً[١]. فعند وصولي إلى سان فرانسيسكو في العاشر من أكتوبر عام ١٩٨٥، للمشاركة في الاحتفال السنوي لتجمع شمالي الأطلنطي، رحت أبحث في دفتر الهاتف وفي سجل الكنائس عن مسجد. وكنت موقناً أنني سأجد في عاصمة المذاهب الأمريكية جماعة إسلامية. وشد ما كانت دهشتي حينما قرأت «المركز الإسلامي، ٨٥٠، شارع ديفيزاديرو، تقام شعائر الصلاة يومياً في الساعة الثانية عشرة، وأيام الآحاد

(١) انظر لتفصيلات أدق: مراد هوفمان: «يوميات مسلم ألماني» الطبعة الثانية. كولونيا (١٩٩١) ص ١٥٦.

في الساعة الثالثة عشرة»، تماماً كما هو معتاد في الكنائس التي لا تحدد مواعيد الصلاة بها تبعاً لوضع الشمس كما هي الحال عند المسلمين. وعندما وصلت إلى هناك، وجدت جماعة تتألف من ثلاثة أعضاء من السود. وانتظاراً لارتفاع الأذان منادياً للصلاة راح شيخ أشيب الشعر، يضع على عينيه نظارة واسعة مائلة إلى أسفل، يقرأ في نسخة عربية من القرآن واضعاً الإصبع على السطور. وينضم إلى الحاضرين عضو آخر من أعضاء الجماعة. إنه يوسف سيمون.. شاب شيعي أسود يدرس العلوم السياسية. ولقد قابل دهشتي بالصمت، إذ لا بد من أنه اعتاد أن يعاني التفرقة لأنه أسود بين بيض، ومسلم بين مسيحيين، وشيعي بين سنّة.

لم تفارقني الدهشة على الإطلاق. فها هو ذا المؤذن للصلاة، ولكنه يبدأ بالإقامة قبل الأذان. ولأن «بلالاً»، أول مؤذن للإسلام بالمدينة، كان أسود، فقد شعرت بحرج شديد في أن أصحح خليفته في سان فرانسيسكو. ولكني ما كنت لأستطيع الصمت إزاء كل هذه التطورات المتناقضة، فرحت أروي بحرص شديد أنه سبق لي أن كنت في مكة، وأنهم هناك يبدؤون بالأذان ثم الإقامة.

ولم يدهشني رد الفعل لما قلت، بل عددته رد فعل طبيعياً، إذ دعتني الجماعة الصغيرة على الفور للصلاة بها إماماً، لأنني «الأكثر علماً» بين المسلمين الموجودين. ولم يؤثر في ذلك بأي حال كوني ألمانياً أبيض وأنني جئتهم أول مرة. وهكذا وجدت نفسي على غير انتظار في مواجهة القبلة. وتمنيت لو أنها كانت، على الأقل، موجهة توجيهاً صحيحاً نحو مكة، وصففت جماعتي الصغيرة جداً في صف مستقيم، ورفعت يديّ مكبراً «الله أكبر».

إن للمعرفة وحدها وزناً يُعتد به. وهذا ما تؤكده أيضاً واقعة أخرى. ففي ديسمبر عام ١٩٨٢، أمَّ صبي عربي في الخامسة عشر من العمر، بفندق شيراتون

المدينة، صلاة مجموعة من المعتمرين الباكستانيين الأميين.

فيما يختص بصلاة الجمعة، التي تتألف بصفة أساسية من خطبتين قصيرتين ثم صلاة ركعتين، فإنه لا بد لأدائها من الذهاب إلى المسجد. وينهي الخطيب خطبته في العادة برفع يديه بالدعاء إلى الله. ومما له أهمية سياسية كبيرة، أن يدعو الخطيب بالبركة للحاكم.

وبناء على خبرتي لسنوات طويلة، لا تحقق هذه الخطب، للأسف، في العالم العربي ما كان يمكن أن تحققه، لأنها تخاطب المشاعر أكثر من مخاطبتها للعقل. فهي تردد ما يؤمن به المؤمنون أكثر مما تعمقه. ويظهر ذلك في نبرة صوت الخطباء. فبعضهم يصرخ كما لوكان يستثير حماسة جيش لخوض معركة. وينبغي مع ذلك أن أقر، على الجانب الآخر، أنه لا مجال في العالم الإسلامي للوعظ بأسلوب حديث، لأنه لا يكاد يوجد به من يدّعي الإلحاد. فلماذا ينبغي على المرء إذن أن يدعم أسس ومبادئ العقيدة بحجج وبراهين عقلية ومعقدة، بدلاً من أن يوظف تربوياً ما يسود العالم الإسلامي من إيمان؟ (وهناك أيضاً استثناءات إيجابية. فكما يتحمل بعض المسيحيين في ميونخ مشقة الوصول عبر طرق أطول إلى خطيب بعينه، كنت في مدة وجودي بالرباط أذهب حتى مشارف المدينة لأستمع إلى إمام مسجد لالا «السيدة سكينة»، المثقف في خطبة صلاة الجمعة).

في أثناء عملي الوظيفي، كان عليّ، تنفيذاً لقاعدة بروتوكولية، أن أصلي صلاتي عيدي الفطر والأضحى خلف قادة دول، مثل الرئيس الجزائري الشاذلي ابن جديد، والملك الحسن الثاني ملك المغرب. وكان ذلك يجري أمام عدسات كاميرات التليفزيون. وكنت في كل مرة ألمس الروح الديمقراطية التي تضفيها

الصلاة الإسلامية حتى على مثل هذه الأجواء. فسجود ملك على الأرض مرتدياً جواربه أمر جد مختلف عن خطو رئيس فرنسا في كاتدرائية ريمس نحو موضع جلوسه المميز.

❖ ❖ ❖

يتسم حفظ النصوص العربية، التي تُتلى في أثناء الصلاة، ومن بينها مقاطع قصيرة أو طويلة من سور القرآن، بالنسبة للبعض، بقدر من الصعوبة، يفوق ذلك الذي يتّسم به تعلم كيفية أداء حركات الصلاة. ولقد ساءني ألا أستطيع أن أحفظ جيداً النصوص العربية، ما جعلني أشبه بمساعد قسّ يفتقر إلى المعرفة اللاتينية. ولذلك، قررت مثل المسلمين كافة، من الأزل إلى الأبد، أن أتعلم من اللغة العربية ما يكفي على الأقل لفهم الصيغ النحوية وأصول المتون. (ولقد استفدت كثيراً من هذه المعرفة الأولية، عندما عملت فيما بعد سفيراً في الجزائر). وكان أول ما تعلمته بطبيعة الحال هو سورة «الفاتحة»، أول سور القرآن وفاتحة الكتاب، وهي مكون رئيسي لكل ركعة. ومن ثم، فإنها تُتلى يومياً ١٧ مرة على أقل تقدير:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾. بعد الفاتحة تعلمت السورة رقم ١١٢، أي سورة الإخلاص، التي تعادل من حيث مضمونها، وفقاً لما يُروى عن الرسول ﷺ، ثلث القرآن بأكمله، على الرغم من قصر آياتها الأربع ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

وتلا ذلك المعوذتان، هما: سورة الفلق (رقم ١١٣)، وسورة الناس (رقم

١١٤)، ثم سورة مكية أخرى قصرة مثل سورة الفيل (رقم ١٠٥)، وسورة قريش (رقم ١٠٦)، وسورة الكافرون (رقم١٠٩)، وسورة النصر (رقم ١١٠)، وكذا الآيات من ١ إلى ٥ من أول سورة نزل بها الوحي، وهي سورة العلق رقم ٩٦ : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾. ولم أغامر بعد ذلك بمحاولة تعلم (حفظ) مقاطع أطول من القرآن مثل آية الكرسي (سورة ٢- آية ٢٥٥)، وآية النور (سورة ٢٤ -آية ٣٥)، وكذا المقاطع الخاصة بأسماء الله الحسنى، أي صفات الله، (سورة ٥٩ - الآيات ٢٢ - ٢٤)، إلا بعد تقدمي المتنامي في المعارف العربية.

إن من يحلل نصوص الصلاة، يصل إلى اليقين بأن جوهر الصلاة هو ذكر الله ودعاؤه. وهذا يتفق مع إرشاد القرآن إلى أن أسمى واجبات الإنسان أن يهتدي بفضل قدراته الذهنية إلى معرفة الله والتسبيح بحمده. وهذا هو جوهر سلوك المسلمين. فإذا سألت أحدهم عن أحواله، فلن يجيب: جيدة أو سيئة. وإنما سيقول: الحمد لله.

بعد الصلاة، يقوم المرء بشغف شديد بالتسبيح بحمد الله، مستخدماً إما سبحة مكونة من ثلاث وثلاثين أو من تسع وتسعين حبة، وإما أصابع يده مرداً في همس: «سبحان الله وبحمده» أو «الشكر لله»، و «الحمد لله»، و «الله أكبر». ولعلنا نلاحظ أنه - خلافاً للمسيحية - تتعدد أشكال التسبيح والدعاء في الإسلام.

وإذا كان للدعاء مكانته الرئيسية، فإن الانصراف عن الدعاء إلى الله يصير نوعا من نقص الإيمان، لأن « الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه». (انظر: سورة ٢ آية: ١٨٦).

وكما أنه ليس للدعاء صورة أو قالب محدد، فليس له أيضاً موقع أو زمن محدد، ولا يشترط أن يكون باللغة العربية، وهو في حالته المثلى ذكر دائم لله. وهذا الذكر الدائم لله هو ما يجتهد فيه متصوفة المسلمين. ولقد قامت أنَّا ماري شيميل بجمع قدر كبير من هذه الأذكار والأدعية الإسلامية الجميلة[١].

ويرجع إلى التصوف الإسلامي الفضل في تمسك وعدم تفكك الأذكار والأدعية الإسلامية شكلاً ومضموناً[٢]، بدءاً من المتصوف الأندلسي ابن عربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر م حتى فيريثجوف شوؤن[٣] في عصرنا الراهن. فلم يتحلل الصوفيون الإسلاميون الحقيقيون على الإطلاق من الشكليات المفروضة، وإنما قاموا بعقلنتها. فها هو ذا شوؤن يقول في موضع آخر[٤]: إن «المسلم - وبصفة خاصة من يتبع السنَّة حتى في أدق وأصغر تفريعاتها- يعيش في شبكة من الرموز. . .». ومن يحمل هذا في قلبه لا يترك صلاته تتحول إلى روتين وسواء أديت الصلاة في مسجد شيعي في هامبورج، أو في مسجد مبني بالطوب اللبن (الطوب الأخضر) وجذوع النخيل في واحة فيجيج شرقي المغرب، أو في المسجد الأموي في دمشق بفسيفسائه المبهرة، فإن الصلاة واحدة، فقد تعلموها على يد معلم واحد (وهو ما حدث بالفعل). وهذا التوحيد الشكلي يوفر الهدوء والطمأنينة اللازمين للتركيز التام.

---

(١) أنّا ماري شيميل: «لك الملك وحدك: صلوات وأدعية إسلامية. فرايبرج (١٩٧٨)، و «فلتكن مشيئتك - أجمل الأدعية الإسلامية». بوندورف (١٩٩٢).

(٢) والصواب في ذلك أن الفضل يرجع للقرآن والسنة الصحيحة.

(٣) **Islam and the Perennial Philosophy: Frithjof Schuon** لندن (١٩٧٦).

(٤) **Frithjof Schuon**: «أن نفهم الإسلام»، ميونخ (١٩٨٨) ص ٨٥. وانظر كذلك: «أدعية الإسلام» لمؤلفه عادل تيودور خوري. ماينز (١٩٨١).

تنطوي الصلاة في الإسلام، بالإضافة إلى جانبها الروحي، على بعد مادي ملموس، فضلاً عن بعد سياسي محتمل. فالمرء يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعلم كيف يجلس على قدميه مسترخياً على أرض صلبة، دون أن يتعرض لتقلصات عضلية، مدركاً أن وضع القدمين عاريتين في الوضع المناسب أيسر منه وهما داخل الجوارب. ولكن الجلوس على الأرض دون حراك لساعات طويلة على نحو ما يفعله إخوتنا في الشرق أمر لم يعد بمقدورنا أن نتعلمه في سن متقدمة.

ومن المؤكد، أن الصلاة في الإسلام تفيد في علاج أعراض التوتر المعاصر، الذي لا يحتاج إلى وقت طويل لتحليل ومعرفة أسبابه. فالإنسان المعاصر لا يعمل من حيث الكم، فيما يختص بالعمل العضلي بصفة خاصة، أكثر مما كان يعمل فيما مضى من الزمن، بل إن العكس هو الصحيح. أما الجديد، فهو السرعة التي تجري بها كل الأحداث وتُجْرى بها كل الأعمال - بوساطة التلكس، والفاكس، والبريد الإلكتروني، والإنترنيت، والبريد السريع -والتي ترهق المرؤوسين - أكثر من الرئيس - الذين يساورهم القلق من احتمالية فقدان السيطرة على الأمور ومداهمة المواعيد لهم، والخوف من الفشل. ويزيد تعاطي الخمور، والتدخين، والأقراص المخدرة، والأقراص المنشطة، الأمر سوءاً. ولقد ارتفعت تكاليف علاج انسداد الشرايين عند من يشغلون وظائف الإدارة العليا، إلى درجة أنهم أصبحوا يرغمون على القيام بإجازات إجبارية. وكذلك تتناول البرامج التدريبية لمديري شؤون العاملين التغذية الحيوية المرتدة، والتأمل الاستشرافي، وضرورة اكتشاف الفرد بنفسه لطقوس الشاي اليابانية بعدها وسائل للتخلص من التوتر والقلق.

ومقولتي في المقابل، هي أن الصلاة الإسلامية تحقق كل هذا وأكثر منه، إذ إنها لا تساعد المؤمن على التوقف عن التفكير والاسترخاء فحسب، وإنما تساعده أيضاً على تحقيق تحرره الداخلي من سحر المال والجاه والمنصب. فبينما يجد الأمريكي الذي يعيش تحت ضغوط مختلفة أنه أمام خيارين لا ثالث لهما إما الحرب وإما الهروب بالانتحار، يختار المسلم اختياراً ثالثاً هو أن يفيض مع الأشياء. (ربما يقصد المؤلف هنا توكل المسلم على الله). فبفضل الصلاة الإسلامية لا يستطيع مسلم حقيقي أن يكون متوتراً مؤرَّقاً، ولا أن يكون مصدراً للتوتر والأرق.

إنني أعرف تماماً عما أتحدث. فلقد كان بمقدوري أن أعرف كل العوامل التي تسبب الضغط والتوتر والأرق من خلال عملي مديراً لقسم حلف شمالي الأطلنطي والدفاع بوزارة الخارجية في المدة (١٩٧٩ - ١٩٨٣)، ومن خلال عملي مديراً لإدارة المعلومات الخاصة بخطر التهديدات بالعدوان في حلف شمالي الأطلنطي ببروكسل في المدة (١٩٨٣- ١٩٨٧).

ابتداءً من عام ١٩٨٠، لم أعد أحمل معي في رحلات العمل سوى سجادة الصلاة وبوصلة (صنع تايوان)، لتحديد اتجاه القبلة، وإن كنت على يقين بأن منشفة نظيفة تفي بالغرض، وأن الله ليس غربياً ولا شرقياً، إذ ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ (سورة البقرة: الآية ١١٥). وراحت أيامي تتشكل أكثر فأكثر تبعاً لمواقيت الصلاة، وليس تبعاً للساعة التي تسبب القلق والتوتر. (فعندما يتواعد المرء مع مسلمين فإنه لا يواعدهم «الساعة الثالثة والربع»، وإنما يواعدهم لوقت غير محدد إلى حد ما «بعد صلاة الظهر»، أو «بعد صلاة المغرب»).

ومجمل القول إنني وجدت عبر الصلاة تلك الطمأنينة والتحرر الداخلي الذي ينتزع المسلم من الضغوط كافة، لأنه يستطيع أن ينتزعه من عالم يقاس الوقت فيه بالمال، والمال فيه هو كل شيء.

عندما تعرضت في عام ١٩٩٢ لحملة طعن وتجريح شرسة في وسائل الإعلام بسبب إيماني، لم يستطع بعض من زملائي أن يفهم عدم اكتراثي بهذه الحملة (أو إنهم عدُّوه نوعاً من الكبرياء والغطرسة). وكان من الممكن العثور على تفسير لهذا السلوك من جانبي في الآية الخامسة من سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

في تلك الأثناء، صارت الصلاة بالنسبة لي عنصر تنظيم لحياتي على جانب كبير من الأهمية، حتى إنني لم أعد أرغب العيش في بلد لا أستطيع أن أسمع فيه نداء المؤذن الجميل للصلاة كما هي الحال في فاس، وفي إسطنبول مرة أخرى أخيراً.

لاحظت مراراً أن صلاة المنزهة عن الغرض يمكن، بحكم طبيعتها، أن تصير عنصراً سياسياً، فإلى ما قبل إقدام الجبهة الإسلامية في الجزائر على العمل العلني في عام ١٩٨٨، كان أتباعها قد بدؤوا يتجنبون المساجد الخاضعة لإشراف الحكومة (كما يتجنب كثيرون من الأتراك العاملين في ألمانيا المؤسسات التابعة لوزارة الأديان التركية). فإسلامهم الموازي ينعكس في صلاة موازية أيضاً. ففي البليدة على سبيل المثال، أدينا الصلاة في عام ١٩٨٧ في مسكن خاص مجاور للمسجد مباشرة، بدلاً من أن نصلي في المسجد.

وبالمثل، كان من المظاهر المميزة أن تدخل المسجد مجموعات من الشباب، قبل أو بعد صلاة الظهر بوقت قصير، لتصلي في أحد الأركان على أنها مجموعة مغلقة، وخلف إمام خاص. وهذه هي الظاهرة ذاتها التي لا حظتها في سبتمبر عام ١٩٩٤ في مسجد سنان باشا بحي باربا روس بإسطنبول.

كانت النتائج السياسية باهرة، عندما أرادت حكومة جبهة التحرير الوطني الجزائري أن تدلل، في أحد المساجد بالقرب من ميناء الجزائر يوم عيد الأضحى عام ١٩٨٨، على مدى ما صارت إليه من تدين وورع. فلقد غضب الشعب بأكمله، (أو سخر)، عندما تبين له على شاشات التلفزيون أن عناصر قيادية من حزب الوحدة الاشتراكي تجهل بشكل واضح كيفية أداء الصلاة. ولم تمض سوى شهور قليلة حتى أصيبت جبهة التحرير الوطني في شهر أكتوبر بهزيمة قاسية، في انتفاضة شعبية، في حين اكتسبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ وضع حزب شرعي.

ما يزال هناك الكثير مما يمكن قوله في هذا الصدد. ولكن حان الآن موعد انطلاق صوت الأذان منادياً عبر عشرات من مكبرات الصوت لصلاة المغرب التي تحين بغروب الشمس مباشرة، وهو أمر لا يحتمل التأجيل.